الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

م	
٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الإدارة
دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٥٨ — ٢٧ ربيع الآخر سنة ١٣٥٨ — ١٥ يونيو سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة

فهرس العدد

صفحة			
٥٦٢	إختبار زوجة	عن الانجليزية	بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى
٥٧٩	دموع قديمة	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ دريني خشبة
٥٩١	زوجة	أقصوصة مصرية	بقلم الآنسة جميلة العلايلي
٥٩٩	الأعمال والآمال	عن الانجليزية	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار
٦٠٥	الورقة الثالثة عشرة	للكاتب القصصى فيليبس أوبنهيم	بقلم الأديب مرزق السيد ابراهيم
٦١١	نصيحة	عن مجلة تروستورى	بقلم السيد ناصر عزيز

اختبار زوجة

(قصة استحقت جائزة مائتى جنيه)

عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى

أحقاً كانت هذه الزوجة غير وفية ؟ وهل كانت أية امرأة أخرى تسلك غير سلوكها إذا هى فوجئت بـ ... ؟

* * *

كنت فى الثانية والعشرين من عمرى عند ما وقع هذا الحادث . وكانت عشرون سنة من هذا العمر قد انقضت مفعمة بكل أسباب السعادة . كنت محبة لعيشتى ولكن فلسفة حياتى كانت بسيطة فالرجال فى نظرى إما خيرون وإما سيئون . والسيئون منهم كانت تحبسهم عن العالم تلك السجون الغبراء القاتمة كذلك السجن الذى يقع فى الوادى القريب منا . والحياة عندى شىء يجب أن يعيشه الإنسان وينعم به ، ولم تكن الأيام فى نظرى من الطول بحيث تتسع لجميع مباهج الحياة . وكانت لغيرى من الناس أحزانهم ولكن أجنحة الحزن العابسة لم تهو ناحيتى مرة من المرات ، ولقد كنت طليقة فرحة ككل شىء صغير فى مزرعة أبى

كان اسمى إلين دراكوت وكنا نعيش منذ ولادتى فى الولايات المتحدة على رمية حجر من سجن الولاية . وكنا إذا ذكرنا السجن أشرنا إليه بأنه البناء الواقع هنالك فى المنحدر ، لأن بيتنا كان قائماً على بقعة مرتفعة إلى الشمال ، ولم يكن يفصله عن فناء السجن غير « الطريق الكبير »

مات أبى وأنا فى العشرين من عمرى ، وبعد شهر من موته تزوجت من جون هارداواى وهو الحبيب الوحيد الذى عرفته

وكانت مزرعة أبى جون مجاورة لمزرعتنا ، وقد اتفقنا على أن نعيش فى بيتنا لأنه كان أكبر من بيت جون وأتم استعداداً

ورغب أبو جون فى أن يعيش معنا وكان كما يصف نفسه « قد ولد مزارعاً » فأشرف بنفسه على خدمة أرضنا وأرضه

وكان جون أشد ميلاً إلى الماشية منه إلى الأرض وكذلك كان شأنى ، لهذا ربط بيننا نوع من الشركة الطبيعية ، فكان جون يرعى القطيع الذى تركه لى أبى

وجرت أمورنا سهلة هنية مرضية إلى أن ساقت الأقدار هايل كيليون إلى طريق حياتنا

وكانت الفتيات من صاحباتى يقلن لى إننى جميلة وإننى لو عنيت بمظهرى وبترتيب شعرى لأصبحت فى طليعة الجميلات ، على أن جمال وجهى لم يدخل إلى نفسى شيئاً من الغرور الذى يبعثه عادة مثل هذا الإطناب

وكان جون أجمل رجل فى المقاطعة ، طويل القامة مستقيم الصدر قوى البنية ، أسود العينين ، له شعر فاحم متماوج تحسده عليه جميع الفتيات .

وكان من الناحية الخلقية مثله من الناحية الجسمية شديد الاستقامة ، وكان مبدؤه ألا يغضي نظره أمام أى مخلوق وألا يدين لإنسان

لقد وهبت جون هارداواى من الحب كل ما تستطيع زوجة صغيرة سليمة الجسم أن تهب الرجل الذى تحبه ، وكنت كذلك أحيطه بنوع من حب الأمومة الذى لم ينعم به قط ، فقد ماتت أمه وأمى ونحن طفلان ، ويظهر أن هذا العامل المشترك كان من الروابط التى جمعت بين قلبينا

ولقد بلغ من حبى جون أننى حين كنت أراه يكاد ينزلق فى طريق خطرة منقاداً لبعض الرجال ، الأكبر سناً والأكثر تجاربا ، لا أتردد فى أن أصارحه برأيى ، ولكنه لم يكن يصغى إلى نصائحى . على أننى لم أكن بطبعى لجوحة ولم أكن ميالة إلى مضايقة الناس بتدخلى فى أمورهم لذلك كنت أكتم حزنى فى نفسى عند ما كان يتركنى الليلة بعد الليلة ليذهب إلى المدينة مع هايل كيليون

وكنت بعض الأحيان أتوسل إليه أن يترك هايل وأن يبقى معى فى البيت إذ كنت وحيدة منقطعة ولكنه كان يجيبنى على ذلك بقوله :

— ولكنك لست وحيدة ياعزيزتى فإن أبى معك

ولكن أباه كان يعمل كثيراً ، وكانت حاجته شديدة إلى التمتع بساعات نومه ، فلم يكن لى من عمل إلا أن أجلس فى الطابق الأول وحيدة أو أسعد إلى فراشى فأبكى حتى أنام ، ولم يكن كل ما يهمنى أننى وحيدة فقط ولكننى بدأت على مرور الأيام أشعر بالخوف من سلطان هايل على جون

وقال لى حمى مرة وهو يحاول أن يواسينى :

— لاتخافى فليس هايل بالشرير الذى تتصورين إنما هو عصبى المزاج عنيد ، فهو يميل إلى مخالطة الجماعات غير المستقيمة فى المدينة ، ويشرب قليلاً ولكنه لم يقع قط فى ورطة ، وقد راقبه أبوه مراقبة شديدة فى طفولته . لذلك قد أبطأ فى الاستفادة من تجارب الأيام ، ويخيل إلىّ أن جون يشعر بشىء من الخيلاء فى أن يصطحبه رجل أكبر منه سناً مثل هايل ، فعليك يا ابنتى بالصبر ، ومتى وضعت مولودك فسيصبح جون رجلاً غير الذى ترين الآن

بعد هذا الحديث غالبت مخاوفى وشرعت أسلى نفسى بأشياء أخر خارج البيت

وكانت الدراسات الخارجية للكلية قد شاعت فى تلك الأيام فسجلت اسمى فى درس التاريخ الانجليزى ، ووجدت أعظم اللذة فى المذاكرة التى كانت تشغل ليالى طوالاً لولاها لكانت ليالى وحدة مملة مزعجة .

وقد ضحك جون من أن زوجته أصبحت طالبة تشمخ بأنفها ولكنى تركته فى تهكمه ومضيت فى درسى .

وفى يوم من الأيام سمح جون لهايل أن يأخذ قطيعاً من الماشية إلى السوق على غير إرادتى ، وكان كل شىء فى هذه الأيام ينقل على قطرات سكة الحديد ، وكان من المألوف أن يصحب القطيع فى العربة أحد الرجال ، وقد أردت أن يذهب جون بنفسه على عادته ، ولكنه رفض أن يسمع أى معارضة فى ذهاب هايل بدلاً منه ، ولما عاد هايل نقدنى فى الحال نصيبى من ثمن القطيع ، وكنت لا أزال غاضبة ، فسلمته صكا بالمبلغ دون أن أنطق بكلمة واحدة فقد لاحظت أنه سكران .

ولما ذهبت إلى البنك لإيداع المال علمت أن جون

لم يودع نصيبه ، وكانت قد مضت عدة أيام بعد عودة هايل وتسديده ثمن القطيع ، فلما جلسنا إلى مائدة العشاء ذكرت ما علمت من البنك لجون وقلت له محذرة :

— يجب ألا تحمل هذا المبلغ الكبير من المال معك يا جون حيثما ذهبت فقد يهاجمك بعض الأشرار

فأجاب جون فى شىء من الكآبة :

— ليس عندى من المال ما أودعه ، فقد ادعى هايل أن المال كله له

ولكن جون دافع عن صديقه عند ما رمى أبوه هايل كيليون بعبارة تحقير وازدراء ، فقال :

— سأحصل على مالى يا أبى عند ما يفيق هايل ، وإنى لأظنه قد وقع فى أيدى عصابة هناك فى ميدان السوق فصحبوه إلى اجتماع أعدوه . ولتثق يا أبي أن هايل رجل مستقيم

وقضت الأسرة بقية وقت العشاء فى صمت . وبعد قليل وصل هايل إلى فناء البيت راكباً وخرج جون معه متجهين إلى المدينة على عادتهما . أما ما حدث بعد وصولهما إلى المدينة فقد علمناه من غيرهما على الصورة الآتية :

تعارك جون وهايل أمام قاعة البليارد عندما أعلن هايل أنه غير مدين لجون بشىء من المال . وكانت المعركة حامية جداً قاتل كل فيها أخاه قتالاً عنيفاً عند ما حاول المشاهدون أن يفرقوا بينهما . على أنهما بعد ذلك تركا المدينة عائدين وهما فى أعين الناس على خير ما يكون من المودة والصداقة ، ولكنهما فى الواقع قد استأنفا القتال على مفترق الطريق

ورآهما جو استاسى فى أثناء عودته وكان جون فاقد الوعى ، أما هايل فكان جثة هامدة وبندقيته إلى جانبه . واستعان جو بما يحمل من الخمر على إفاقة جون من غيبوبته . وكان جوادا المتعاركين قد اختفيا ، ولكن جو قال إنه سمع ركض الخيل فى طريق المدينة فى أثناء مجيئه منها

وعادوا بجون إلى المدينة ؛ ولم يكن فى وسعه أن يخبرهم بأكثر من أن هايل غلبه من أول لكمة فأفقده الرشد . وأودع الشريف جون سجن المقاطعة حيث وجده أبوه فى صباح اليوم التالى

وقال لى حمى عند ما عاد إلى البيت :

— يريد جون ألا تهتمى بما حدث فهم سيحققون معه التحقيق الابتدائى بعد ظهر اليوم وسينتهى كل شىء على خير

فلما بكيت صارخة فى حال عصبية قال حمى :

— لا تخافى يا إلين واذكرى أن فى أحشائك جنيناً يجب أن تفكرى فيه

ولاحظت فى عينى الرجل نظرة غريبة فبذلت جهداً عنيفاً لأخفف من ضربات قلبى الهائجة وصحت :

— ولكن يا أبى إذا كان هايل ميتاً وليس هناك شهود على ما حدث فماذا يكون موقف جون ؟

فقال الرجل فى حزم :

— نعم يا إلين إنى أرى المركز دقيقاً حرجاً ولكنى واثق من براءة ابنى

وبدأت محاكمة جون فى اليوم التالى للتحقيق الابتدائى ، ولقصر الوقت بين التحقيق والمحاكمة رفض طلب إطلاق سراحه بكفالة فبقى فى السجن

ولما كانت حالتى الصحية لا تسمح لى بحضور المحاكمة فقد اكتفى بسماع شهادة قصيرة أدليت بها ولم أر جون بعد ذلك إلا عندما أحضره الشريف إلىّ ليودعنى الوداع الأخير ، فقد حكم عليه بالسجن المؤبد

بنى الحكم على جون على شهادة القرائن ؛ فقد روى قصته على حقيقتها فى غير تردد، ولكن القاضى والمحلفين لم يقيموا لها كبير وزن . قال إن هايل كان لا يزال تحت تأثير السكر عند ما غادر المدينة ، ولم يستطع أن يقول أين ذهب بمال جون ، فتشاجرا وكان هايل هو الذى ضرب الضربة الأولى مدعياً أن جون قد وصفه بأنه لص ، على أنهما لم يلبثا أن تصالحا وضحكا على ما كان منهما ، ولكنهما فى أثناء عودتهما إلى البيت استأنف هايل القتال

وفى مفترق الطريق ترجلا عن جواديهما وقررا أن يتقاتلا بقبضاتهما عارية عن القفازات ، وألقيا ببندقيتيهما على الأرض وأجفل الجوادان فركضا هاربين . وضرب هايل الضربة الأولى فكانت ضربة قاضية أفقدت جون وعيه فلم يعرف شيئاً بعد ذلك إلى أن استيقظ فوجد أستاسى منحنياً عليه

وقال جون :

— لقد كانت بندقيتانا ملقيتين على الأرض إحداهما إلى جانب الأخرى فابحثوا عن بندقيتى فحيث وجدتموها وجدتم القاتل

ولكن القرائن ضد جون كانت من القوة بحيث بدت كلماته عديمة القيمة ، وكان الشعور العام متجهاً إلى أنه بعد أن قتل هايل ألقى ببندقيته بعيداً حتى إذا شعر باقتراب أستاسى اصطنع النيبوبة والإغماء . واعتقد آخرون أن البندقية التقطها أحد الباحثين عن الأشياء الغريبة عند ما ازدحم الناس حول الجثة ليلة ارتكاب الجريمة . ولم يصدق ببراءة زوجى إلا نفر قليل من شهود المحاكمة

ولما وصلنى خبر الحكم على زوجى شعرت بأن الحياة لا تساوى متاعبها ، وأحسست بأننى مريضة النفس والجسم ، ولكن الأمل فى محاكمة ثانية شجعنى على احتمال الصدمة ، على أن هذا الأمل لم يكن ليتحقق ، ولكنه على كل حال قد قوانى على النهوض يوم أحضر الشريف كلم هاوكنز زوجى إلى البيت لتوديعى قبل الذهاب به إلى السجن

فك الشريف القيد الحديدى من يدى زوجى لمجرد دخولهما إلى البيت ثم أدار لنا ظهره وأطل من الشباك ، فعانقنى جون وقال :

— إلين . ثقى بأننى برىء من قتل هايل ثقتك بأن الله موجود فى السماء

قال جون هذه الكلمات فى ثبات وخشوع كما لو كان يقسم قسماً عظيماً ، ولأول مرة زال من نفسى كل شك فى براءة زوجى . فعانقته وانحنيت عليه فقال :

— لم يكن بد من أن أراك يا إلين لأقول لك هذه الكلمات لأنى أعلم أنك كنت تشكين فى براءتى . لقد قرأت أفكارك يا عزيزتى ، وكنت دائماً قادراً على قراءتها ، والآن أطلب منك أن تعديني بألا تحضرى أبداً إلى السجن لرؤيتى . فإنى لا أطيق أن ترينى أنت أو طفلنا سجيناً . ولا تكتبى لى فإن ذلك يصعب على البقاء هناك ... وسيتكفل أبى بزيارتى . والذى أرجوه منك يا إلين هو ألا تخبرى طفلنا أن أباه سجين . عوديه على أن يحسبنى ميتاً . وثمة شىء تستطيعين أن تعمليه من أجلى . فسأنتظر فى الساعة السادسة من كل مساء أن أسمعك تقولين : « إنى أحبك ياجون » كما كنت تقولين كلما كنت بعيدة فى الكلية وسأسمع كلماتك وسأرد عليك بمثلها »

وكنت أنا وجون نعتقد بالإيحاء وقد أقمنا الدليل على قوته فى كثير من الفرص .

وقد سألني جون !

— أو ستفعلين هذا الذي أطلب منك يا إلين؟

فوعدته في كلمات تقطعها الزفرات :

— نعم يا أعز الناس على نفسي لا بد أن أفعل ذلك ولن أنسى أبداً ، وإني لأصدقك ، وأعتقد ببراءتك وبأنك لم تقتل هايل كيايون . لن أنسى ذلك ما حييت .

وكانت عينا جون جافيتين عند ما قبلني ، وكان صوته ثابتاً رزيناً عند ما ألقى إلى بكلمة الوداع . وكان ظاهراً أنه قد غالب نفسه وشعوره قبل حضوره لوداعي ، ولكني تعلقت به في عنف عند ما أعاد الشريف القيد الحديدي إلى يده وقال : « هلم بنا يا جون فلا بد من أن نذهب » .

فقال جون :

— ابق مع إلين يا أبي وحافظ عليها ، واعن بأمرها واحضر لرؤيتي كلما استطعت الحضور .

وكان من نعمة الله على أن أصابني الإغماء ؛ فحملني حمي إلى فراشي . وفي المساء شعرت بأنه يغسل وجهي ، وكان الطبيب قد غادر المنزل في هذه اللحظة ، وسمعت حركة في المطبخ بالطابق الأول .

وقال حمي :

— يجب على الإنسان أن يحتمل الحياة يا إلين . وليكن طفلك أول ما تفكرين فيه ، وسأحضر لك الآن شيئاً من الحساء الساخن ، وقد حضرت مارى جونز وفرانك لمساعدتنا ، وقد عنينا بكل شيء في البيت ، وإني لواثق من أنك ستزودين بالشجاعة في حياتك المقبلة . ومن المحتمل أن نصل إلى محاكمة جديدة كما تعلمين .

ونطق حمي العبارة الأخيرة بلهجة المواساة الرقيقة . فغالبت حزني واستويت جالسة في فراشي وكانت الساعة قد اقتربت من السادسة مساء .

تذكرت وعدي لجون فصليت لله ضارعة وقلت بينما ذهب حمي لإحضار الحساء :

— اللهم مكنه من أن يسمعني .

فلما دقت الساعة السادسة قلت :

— إني أحبك ياجون .

وبعثت هذه الرسالة بكل ما في نفسي من قوة معنوية .

واضطربت إلى أعماق نفسي عند ما سمعت الرد يدب في أذني .

— إني أحبك يا إلين .

كانت هذه الرسائل فاتحة رسائل إيحائية عديدة بيننا فلم أنس قط أن أرسل كل يوم هذه الرسالة الطائرة التي كان جون ينتظر وصولها إليه وهو جالس هادىء في سجنه الصخري .

وكان حمي يذهب بنظام لزيارة جون في المواعيد المحددة للزيارة ولكنني لم أعرف قط ما كان يجري بينهما من حديث . على أنه كان يبلغني أموراً تتصل بجون كالفرقة التي كان زوجي يعلمها في أيام الآحاد ، وهي مؤلفة من جماعة لم تكن من قبل تهتم بأي شأن من شئون الدين ، وأخبرني أيضاً أن إدارة السجن عهدت إلى جون بالإشراف على الحركة الرياضية الجديدة التي أدخلت على نظام السجن .

وأخبرني مرة أن جون أقنع فريقاً من المسجونين بالعدول عن الهرب من السجن ، وسلم الأسلحة التي صنعوها بأيديهم إلى أولي الأمر دون أن يذكر لهم أسماء المتذمرين . وفي مرة أخرى أخبرني أن جون

اعترف له بالقيادة والشجاعة لإخماده حريقاً فى نبات القنب .

ولم يدهشنى ماعلمت من صفات الشجاعة والقيادة التى تميز بها جون ، ولكنى دهشت عندما سمعت أنه قد اختار العمل فى المناجم مع أشد المسجونين تهوراً . وقد قال الحارس لحمى إن جون اختار هذا العمل لأن هؤلاء المسجونين كانوا بحاجة إليه لأنه يستطيع أن يقودهم إلى حياة أفضل من حياتهم الحاضرة إذا هو فضل هذا النوع من العمل على الدرس الدينى الذى كان قد عهد إليه بإلقائه أول الأمر . ولقد شعرت عندما سمعت هذا الكلام بشعور الفخر بزوجى . فكان من النادر أن يغيب ذكره عن رأسى واحتفظت بصورة جون الفوتوغرافية على مائدة زينتى ، وكنت أقول لابنى الصغير :

— هذا هو أبوك ، ونحن نحبه وهو يحبنا ، وما نستطيع أن نراه أبداً ، ولكننا نعلم أنه يفكر فينا على الدوام .

وكنت قد وضعت ابنى بعد شهرين من دخول أبيه السجن ، وكان طفلاً جميلاً قوياً ، وقد سميته رونالد كاسم أبى ، ولكن اسم رونى كان أكثر انطباقاً عليه ، وتعودت أنا وحمى أن ندعوه بهذا الاسم المصغر . وقبل أن يتكلم بوقت طويل تعلم أن يهز يده مرسلاً فى الهواء بقبلة إلى صورة أبيه وكانت أول كلمة نطق بها هى كلمة « أبى » .

وكتبت فى بعض الأحيان خطابات مطولة لجون أصف له فيها ابننا الصغير ، ولكننى لم أرسل قط هذه الخطابات .

حافظت على وعدى لجون بالبقاء بعيدة عن السجن ، وكنت فى كل ليلة أتحدث إليه ، وليس من يشهد موعد غرامنا غير النجوم والقمر أو ربما خيالات الشتاء الفارس .

وكان فى مرعانا المجاور للتل على مقربة من مزرعة السجن أكمة صغيرة ، فكنت أقصد إليها غالباً بعد انتهاء عملى ، وكان يلذ لى أن أجلس فوقها وأرقب مصابيح السجن حين تضاء . فكان المنظر أشبه بقصر من قصور الجان بأضوائه البراقة التى تبعث بأشعتها إلى غسق الوادى المنحدر . فلم يكن السجن فى هذه الساعات ليشبه فى شىء مأوى الآمال الضائعة وبيت العقاب .

كان يحلو لى أن أجلس هناك وأفكر فى جون فأرسل له وأتلقى رسالتى حبنا الصامتتين . وكان يخيل إلىّ فى بعض الأحيان ، عندما يكون ضوء النهار لم يغب بعد عن الأرض المرتفعة ، أن بناء السجن وحش رابض فى ظلال الوادى ، فكنت أبغضه لأنه قد التهم حبيبى .

وفى مساء يوم من الأيام أتيت برونى معى فى هذه الرحلة اليومية ، وكان قد بلغ السنة الخامسة من عمره . فلما وقفنا هناك مولين ظهرينا ناحية الشمس الغاربة ، رأينا فريقاً من المسجونين فى عربة محملة بالحشائش الجافة تسير بهم مبطئة فى الطريق الموصل بيننا وبين السجن ، وكانوا عائدين من أحد الحقول البعيدة وقد استطعت أن أرى هؤلاء الرجال الصامتين رؤية تامة ، ولكن بعد المسافة لم يمكنى من تمييز قسمات وجوههم . وعلى حين فجأة وقف واحد منهم ورفع قبعة السجن ، وبقى على ذلك إلى أن غابت العربة عن نظرى . فسألت نفسى : أيمكن أن يكون هذا الرجل هو جون ؟ وذكرت عندئذ أن حمى قد أخبرنى أن جون كان يشرف على الفرقة من

المسجونين التي عهد إليها أن تعمل فى الزراعة هذا الصيف . فعرفت أن جون هو ذلك الرجل الذى وقف وحيانى أنا وولدنا هذه التحية الصامتة .

ولم أخبر حمى بما حدث فقد كان هذا الحادث أمراً مقدساً احتفظت به لنفسي ، ولكنه عند ما عاد إلى البيت بعد يوم الزيارة من الأسبوع التالى قال لى :

— لقد عزمت يا إلين ألا آخذ رونى معى مرة أخرى إلى المرعى ، وأظن أننى أنا نفسى لن أذهب إليها ، فهناك مغريات لا تقوى الطبيعة البشرية على مقاومتها . وجون رجل برىء ، فنفسه خالية من الشعور بعدل ماينزل به من عقاب، هذا الشعور الذى من شأنه أن يحمل كثيرين من الرجال على أن يخضعوا لأحكام السجن ممتثلين . ولقد كان جون حتى الآن مثلاً طيباً فى السلوك ، ولكننا جميعاً معرضون للتأثر بالمغريات

فصحت :

— ولكن أليست لى يا أبى حقوق ؟ أيجب علىّ ألا أشعر أنا أيضاً ؟

فأجابنى حمى :

— تذكرى يا إلين أن جون لو هرب من السجن لعوقب كما يعاقب أى سجين آخر ، وهو حتى الآن قد حصل على أحسن تقرير يحصل عليه السجين فإذا هو أضاع سمعته هذه فقد كل ثقة فيه إلى الأبد

لم آخذ رونى معى بعد ذلك ولكننى كنت أذهب وحدى وأجلس مفكرة فى جون آملة أن أراه مرة ثانية ، ولكنى لم أسمع صوت عربة السجن قادمة إلا مرة واحدة بعد ذلك ، فطرحت نفسى على الحشيش حتى مرت بى

وإذا كنت قد رويت هذه الحوادث المحزنة فليس معنى هذا أن الحياة كانت كلها متاعب وأحزاناً فلقد أصبحت فى تلك الأيام امرأة كثيرة المشاغل ، فقد غيرت طبيعة مزرعتى من البيع بالجملة إلى الاتجار فى الألبان ، وقد ارتفعت سمعة قطعان هارداواى فى جميع أرجاء الولاية وحصلت على الجوائز الأولى فى المعارض ، وصرت من العملاء الدائمين مع مخازن ألبان الحكومة ، وتلقيت كثيراً من المحاضرات الخارجية فى كلية الزراعة الحكومية

واشتركت فى كثير من النوادى وهذا هو الميدان الذى اتجه إليه نشاطى ووجدت فيه العزاء من الأحزان التى كادت تدفننى فى الظلام . وكان حبى ابنى أكبر عامل فى شعورى بالانشراح والسعادة فقد قضينا معاً أوقاتاً هنية حقاً ، وقابلت كثيرين من ألطف الرجال وكان فى مقدورى أن أتزوج إن أردت ، ولكن لم يكن هناك غير رجل واحد يحتفظ له قلبى بالحب والولاء هو جون هارداواى

وفى أحد أيام الشتاء من العام السابع لسجن جون عاد حمى إلى البيت مصاباً ببرد شديد ، وكان قد ذهب لزيارة جون وقد بدا عليه أنه يشعر بهبوط فى حاله النفسية ، ولما ذهب رونى إلى فراشه حملت حمى فى إصرار على أن يقص علىّ ما حدث

قال : إن جون قد أصبح بطلاً فى السجن ، وقد شب حريق فى مصنع المراتب أودى بحياة كثيرين من المسجونين وأحد الحراس ، وأنقذ جون أرواحاً عديدة بسرعة تفكيره وحسن قيادته ، وقد لحقته بعض الإصابات ولكن أباه لم يقف على مبلغها لأنه اضطر أن يغادر السجن قبل أن ينتهى الطبيب من عمله ، فقد أصر جون على أن يتولى الطبيب إسعاف جميع المصابين سواه وأن يتركه

هو إلى أن ينتهى منهم جميعاً

وأرقدت حمى فى فراشه بعد أن وضعت على صدره « اللصقة » التى يحبها ، ولكن أعراض البرد اشتدت عليه وساءت حاله ، وحضر الطبيب لعيادته ولكنه لم يستطع أن يعمل شيئاً . وفى اليوم التالى توفى حمى وتركنى أنا ورونى وحيدين ، فكانت وفاته صدمة شديدة لى فقد كانت منزلته فى نفسى بعد منزلة أبى مباشرة ، وكان الرفيق الذى لا يفارقه رونى

وعلمت بعد مدة طويلة أن الحروق التى أصيب بها جون كانت شديدة ، وكان أفظعها ما أصاب يديه ، وقد فقد أحد إبهاميه من جراء ذلك الحادث فكان كل ما استطعت أن أعمله هو أن أزيد فى رسائلى الإيحائية إليه حاملة له حبى من فوق تلك الأكمة التى لم أنقطع يوماً عن زيارتها

وبعد وفاة حمى انتقل فرانك ومارى جوز للإقامة معنا فى البيت ، وقد كانا حتى الآن يساعداننى فى أعمال مصنع الألبان ، ولكننى أصبحت محتاجة إلى مساعدتهما فى أعمال المزرعة أيضاً . لذلك أصلحت بيت جوز ليسكنه جاك وود وأخته جين ، وقد أثبت جاك أنه مدير صالح للمزرعة ، ولم تلبث جين أن عرفت فى جميع الجهات المجاورة بمهارتها ونشاطها

وكانت جين فى نهاية السنة العشرين من عمرها جميلة المنظر جذابة الروح ، وكانت شديدة الحب لرونى فكان الطفل دائماً على استعداد لمصاحبة الخالة جين ، فكان من النادر أن تذهب إلى المدينة قبل أن تمر علينا بعربتها فتستصحبه معها ، ولم يكن جاك أقل تعلقاً برونى من أخته ، وهكذا كان الطفل يقضى أغلب أوقاته عندهما

لم أتكلم حتى الآن كثيراً عن طفلى ، والحق أنه أصبح فى العام السابع من عمره صبياً كاملاً يشبه أباه فى شكله شبهاً شديداً ، كانت له عيناه الكبيرتان السوداوان اللتان تلمعان فى الغضب وتشعان فى السرور ، أما شعره فكان فى سواد شعرى . وكان الطفل نظيفاً بطبيعته مثل أبيه ، فالناظر إلى وجهه ويديه يخيل إليه أنه لا ينقطع لحظة عن تنظيفها ، وكان يندر أن يراه الإنسان منفعلاً أو شرس الخلق ، فلم يكن يحتاج إلا إلى القليل من الإرشاد ، وكان شديد الاهتمام بكل ما يدور حوله ، فكان فى هذه السن طفلاً محبوباً من كل من يراه ، كثير التخيل بعض الأحيان ولكنه كان دائماً شديد التأمل

كان الشتاء فى هذا العام قارساً مللنا أيامه الطويلة الفظيعة ، ولكن أيام الدفء لم تلبث أن أقبلت ، وكنا فى الأيام الأولى من شهر أبريل ، وقد بدأنا نسمع نقيق الضفادع فى بركة المرعى . فابتسمت مبتهجة عندما مررت بالبركة فى طريقى إلى أكمتى المحبوبة . وقد شعرت بانتعاش فى نفسى لأننى سأستطيع الآن أن أذهب إليها فى أغلب الأوقات لأتبادل مع جون رسائل حبنا ، وإذ بعثت إليه برسالتى فى هذه الليلة شعرت بأنه أقرب إلىّ منه فى أى وقت مضى .

لقد قدر أن تكون هذه هى أخرى زياراتى للأكمة . وكانت الضفادع تنق مطمئنة وأنا عائدة إلى البيت مبطئة فى مشيتى . وفى منتصف الطريق التقيت بمارى جوز وكانت قادمة للبحث عنى ، فما رأتنى حتى قالت وهى تلهث :

— لقد كنا نبحث عنك فى كل مكان ، فقد اعترف ديبى بلاين بأنه هو الذى قتل هابل كيليون

هو مريض ، وقد أحضروا له القسيس فاعترف له بكل شيء ، فلتسرعي يا مسز هارداواي فإنهم يريدون أن يذهبي مباشرة إلى بيت بلاين

لم أرد أن أسرع لأنني أردت أن أبقى هناك تحت سماء ابريل أشكر لله هذا النبأ المبارك ، على أنني لم أصنع وقتاً في الوصول إلى بيت بلاين

وكان دبني في الواقع مريضاً جداً ، ولكنه في هذيانه روى قصة ما حدث على مفترق الطريق منذ سنوات عديدة ، فقال إنه كان عائداً في طريقه إلى بيته على جواده الصغير بعد زيارة لإحدى العائلات المجاورة ، فلما وصل إلى مفترق الطريق رأى جون وهايل يتقاتلان ، وكان هايل قد ألقى بجون على الأرض وشرع يخنقه ، فالتقط بلاين إحدى البندقيتين من على الأرض وأطلقها على هايل فأصاب الطاق جنبه

وكان جون فاقد الوعي فسقط هايل إلى جانبه جثة هامدة ، ولم يتبين بلاين إذا كانت الإصابة قاتلة أو إذا كان المصاب لا يزال حياً ، ولم يلبث أن سمع صوت جواد قادم من ناحية المدينة ، فوثب إلى سرج جواده ودفعه مسرعاً في الطريق العارض ، وكان لا يزال حاملاً البندقية في يده ؛ فلما وصل إلى البيت وضعها على رف هناك وهي لا تزال هناك من ذلك التاريخ

وهكذا وضح الحق في قصة جون ، فهو بعد اليوم حر طليق وسيعود إليّ بعد قليل ! ولو أن السعادة تقتل الإنسان لكانت قتلتني في تلك الليلة

لم يعش دبني حتى يحاكم على فعلته ، فقد قضى عليه المرض بعد أسابيع قليلة من هذا الاعتراف

وكان لا بد من انقضاء بضعة أيام يحقق البوليس في أثنائها رواية بلاين وتعد فيها الأوراق الخاصة بالإفراج عن جون ، وقد قضيت هذه الأيام منهمكة في إعداد ما تتطلبه عودته من مظاهر الاحتفال ، وقد قلت لروني إن أباه عائد إلى البيت فلم يكن الطفل أقل مني تأثراً وابتهاجاً بهذا النبأ السعيد

وحضر فرانك إلى البيت في اليوم الثالث لتأكيد البوليس من صدق رواية بلاين وأخبرني بأن الأمر قد صدر بالإفراج عن جون وأنه سيعود إلى البيت في اليوم التالي ، ثم مضى ليشرف على حلب الماشية

وصعدت إلى الطابق العلوي لألبس رداء نظيفاً قبل الإشراف على عملية إخراج الزبد وإعداد أدوات التبريد

فلما عدت إلى الطابق الأول سمعت دقاً شديداً على الباب الجانبي ، فظننت أن الطارق قد يكون جون ولكني لم ألبث أن ذكرت أنه لا يمكن أن يجيء بهذه السرعة ، فذهبت أفكاري كل مذهب ، غير أنني لم أتصور أن جون يطرق باب بيته . وبينا هذه الأفكار تساورني تخيلت جون وهو يدخل من الباب مندفعاً يبحث عني في لهفة وشوق فاتحاً ذراعيه كما كان يفعل عادة

ثم فتحت الباب فرأيت واقفاً على عتبته رجلاً قذر المنظر يلبس صديرياً قصيراً تميل قبعته إلى الأمام حتى تكاد تخفي عينيه ، وقد أمسكت إحدى يديه الوسختين طرف الباب ، وقد بدا ما بقي من إبهامه المقطوع بشع المنظر لم تلتئم ندبته التئاماً تاماً ، فجزعت أول الأمر ووددت لو أن فرانك أو ماري كان معي ، ثم قلت :

— أسعدت مساء ، هل تريد شيئاً ؟

فتراجع الرجل قليلاً وقال في صوت أجش :

— إلين ! ألا تعرفينى — أنا جون ؟

فصحت :

— جون ؟ أوه ، لا ! لا ! لست أنت جون ، لست أنت زوجى !

ثم تذكرت السنوات المديدة التى مرت بنا ؛ فلطفت لهجتى وقلت :

— جون ؟ آه . عزيزى . أدخل .

وشعرت على حين فجأة أن الدنيا قد فقدت بهجتها ، وأدركت أن جون زوجى قد بات فى نظرى فى عداد الأموات ، لقد ختمت مأساة حياتى بهذه الخاتمة الموجعة .

ودخل جون البيت مترددا وكان يرتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدمه . وقال :

— لقد أفرجوا عنى بأسرع مما كانوا يتوقعون يا إلين ، ولم أستطع أن أنتظر إلى الغد فقطعت الطريق جريا ، واجتزت المرعى بجوار الأكمة فشعرت بوجودك فوقها ، فانطرحت على الأرض وقبلت البقعة التى وطأها قدماك يا عزيزتى ! ولكن التى أراها الآن ليست إلين التى عهدتها ، فهذه امرأة جامدة كأنما يفصل بينها وبينى مدى بعيد ! أين ولدى ؟ هل علمته أن يكرهنى أيضا ؟

فقلت :

— صه يا جون ! وسنتكلم بعد أن تغتسل وترتدى ملابس نظيفة . إنك متأثر بما مر بك من حوادث ومفاجآت ، وهاهى غرفة أبيك فى انتظارك وستجد فيها ملابس جديدة معدة لك

لم أخبر جون أننى قضيت النهار كله فى عمل متواصل لإعداد غرفتنا على ما يجب أن تكون بعد أن نقلت فراش زوجى إلى الغرفة الصغيرة المجاورة . ثم صعدت السلم يتبعنى جون مبطئا فلما دخل الحمام أسرعت بنقل ثيابه إلى الغرفة التى كان يسكنها أبوه . وكانت هذه الثياب هى التى كان يلبسها قبل ذهابه إلى السجن ، وهى البقية التى وضعناها فى الصندوق الخشبى بعد إخراجنا ثياب أبيه

وأدركت أن الثياب ستكون واسعة عليه جدا فقد نحل جسمه كثيرا ، وبالأمس رقعت ثوب النوم ذا الطراز القديم أمام عينى وقبلت رقبته وتصورت جون وهو يلبسه . والآن إذ أسرعت بوضع الثياب فوق سريره تحدرت الدموع من عينى واجتهدت فى تملك عواطفى حتى لا يخونى صوتى عند ما ناديته من خلال باب الحمام قائلة :

— لقد أعددت لك الثياب على الفراش وهناك ثياب أخرى فى الصندوق ، فتحضر إلى العشاء متى انتهيت

وحرصا على حياتى لم أستطع أن أودع كلماتى شيئا من حرارة الحب . ونزلت إلى الطابق الأول مهزوزة الأعصاب لحد عنيف وقد سحق الحزن قلبى فلم أستطع الإشراف على عملية اللبن ، وتولت مارى العمل نيابة عنى وقد قالت :

— من رأيى أنه كان يجب أن يخبروك بما ستواجهينه فإن حياة السجن تشوه رجلا مثل جون تشويها فظيعا ، فعملهم هذا إثم وعار ، ولا عجب إذا شعرت بانكسار نفسك فدعى عنك أمر اللبن فسأتولاه واذهبى أنت فاجلسى وحاولى أن تأتى ما طرأ على حياتك من تبدل

فقلت فى نفسى : إننى لن آلف ذلك أبدا ! فماذا عسانى أستطيع أن أفعل ؟

لقد تعودت أن أرى جون جالسا معى إلى المائدة

فلن أستطيع أن أتعود أبداً أن أرى مكانه هذا الرجل المشوه الذى عاد ليدعونى امرأته .

ساعدت مارى فى إعداد مائدة العشاء ، ولكن مارى هى التى أرشدت جون إلى مكانه على المائدة .

ولقد جلست ساكنة كشخص متجمد ، أما رونى فقد استدارت عيناه من الدهشة ولم يتبس ببنت شفة ولم يأكل شيئاً . وتكلم فرانك وجون فيما طرأ على المزرعة من تغير وعن شئون التعاون وعن موت أبيه ، ولكنهما لم يذكرا شيئاً عن شؤون جون نفسه . فكان الرجل غريباً على مائدته .

لقد تظاهر جون نفسه جهد ما استطاع ولكن الصابون لا يزيل قذارة السجن من أول مرة . وكان جون شاعراً بحالته فلم يأكل إلا قليلاً . وعند الانتهاء من الطعام قال فرانك :

— لاتزال هناك بقية من الضوء تمكنك يا جون من مشاهدة بعض أعمالى فى المزرعة إذا أردت أن تمر بها قبل هجوم الظلام .

فنهض جون وتلمس قبعته ثم بدا عليه أنه يتذكر فتبع فرانك عارى الرأس يسير بخطوات ثقيلة أشبه ما يكون بالشيخ الهرم . ولعل وراء جفنيه المسبلين دموعاً متجمعة تغشى البصر كالدموع التى ملأت عينى فى تلك اللحظة .

وعاد جون متأخراً فى المساء فآوى إلى الغرفة التى كان يسكنها أبوه ، ولم يحاول أن يفتح باب غرفتى ، ولو أنه حاول ذلك لوجده موصداً بالمفتاح

واستمرت حياتنا شهراً كاملاً على هذا النمط . ولو أن جون بدأ فى الحال يساعد فى أعمال المزرعة ولم يكن له من مركز محدد فى العمل فقد تلاشى ما كان يتميز به فى شبابه من النشاط والخفة والتسلط وأصبح ينتظر ما يلقى إليه من التعليمات ، ولكنه كان يعمل برغبة صادقة ولذة واضحة فى إنجاز ما يشير عليه فرانك بعمله

وكان فى سلوكه معى رقيقاً غير فضولى ، وكان فى بعض الأحيان يشتد به التواضع إلى حد الخجل ؛ وكان قليل الالتفات إلى رونى ولكننى لاحظته بعض الأحيان وهو يرمق الطفل بعين ملؤها الحب والاهتمام ، أما رونى فلم يقبل قط أن يكون جون أباً له .

شهر واحد من هذه الحياة كاد يدفع بى إلى الجنون . ولو أن جون ضمنى بين ساعديه وقبانى بالقوة لكان من المحتمل أن أثور فى وجهه وأن أدفعه عنى ولكنى لم أكن لأحتقره كما احتقرته الآن

يجب أن ينتهى الأمر بيننا بالطلاق . ولقد شعرت باقتراب هذه النتيجة ، فإن الأمور لا يمكن أن تستمر على ما هى عليه الآن ، ولكننى ترددت فى النطق بالكلمة التى تؤدى إلى هذه الغاية . لم يبق فى نفسى شىء من الحب لجون ولكننى لم أرد أن أجرحه ، فقد أعرف أن نفسه الحساسة لا تزال مقيمة فى جسمه المشوه ، فالجرح الذى أصابه كان بالفعل بالغاً عميقاً ، عميقاً إلى أبعد المدى

وجلست فى إحدى الليالى الممطرة إلى مكتبى أراجع بعض الحسابات المهملة ، وكان رونى قلقاً كثير الحركة ضايقنى بكثرة مطالبه فوضع جون الصحيفة التى كان يقرأها جانباً وناداه :

— تعال يا بنى

وكانت حركة جون غير متوقعة فلم أملك أن وقفت عملى ونظرت لأرى ما يكون ، فرأيت رونى يذهب إلى جانب أبيه ، فقال جون:

— قل لى ما هى الهدية التى تفضل أن أحضرها لك ... ؟

فأجاب رونى مسرعاً :

— جواد

— حسن! فلأحضر لك «سيسى» خاصاً بك.

فقال رونى فى لهجة التوكيد :

— لا . فإنى أريد جواداً كالذى يركبه أبى، جواداً أبيض كبيراً

— ولكنى لا أفهم يارونى ما تريد؛ فأنا أبوك ولكننى لا أركب جواداً أبيض

فقال رونى والتفت إلىّ :

— أقصد أبى الحقيقى الذى أراه فوق مائدة زينة أمى ، فقد حدثتنى عنه ... ألم تحدثينى يا أمى عن أبى ؟

فقلت :

— لقد رويت له يا جون قصة جالاهاد فكان بعد ذلك يقرنها دائماً بصورتك الفوتوغرافية . ولقد علمته أن يحب صورتك هذه ولم أحلم قط ...

فقاطعنى جون قائلاً :

— فهمت ... فهمت ... رونى يحسب أن له أبوين ، فماذا نفعل فى ذلك يا إلين ؟ هل ترين أن أتركه فى أحلامه ، أم نوقظه كما استيقظنا أنت وأنا ؟

فأجبت فى حدة :

— بل لنتركه فى أحلامه

فأجاب جون فى لهجة حازمة لم يتكلم بمثلها منذ عودته من السجن :

— أما أنا فأرى الأمرين . فإن عقل الطفل أشد ليونة من عقل الإنسان الكبير ، وسيدرك الحقيقة تدريجاً ثم يقبلها .

عدت إلى مواصلة عملى ، وتكلم جون ورونى عن مركب وعد جون ابنه بأن يصنعها له من قطعة خشب صغيرة وجدها ، وقد فهمت من حديث جون أنه قد غوى الحفر فى الخشب واشتغل به .

وبعد برهة قصيرة أخذت رونى إلى فراشه فى الطابق الثانى ، ولما عدت وضع جون جانبا المجلة التى نشرت فيها مقالتى الأخيرة عن صناعة الألبان . وسألنى :

— إلين ، ألا تشعرين بأنك تريدين أن تتكلمى ؟ أظن أن هناك أموراً يجب أن نتكلم فيها معاً ، فما أنت بالسعيدة ولا أنا بالسعيد . لقد قاسينا كلانا الألم الشديد من هذه التجربة الفظيعة . وليس أحد منا بملوم على ما حدث، وما أنا بالرجل الذى أخذوه منك ولا أنت أيضاً بالفتاة التى تركتها ورائى .

ولكل منا ذكرياته القديمة لا يستطيع نسيانها ، وكلانا صغير ، فأنا لم أتجاوز السادسة والثلاثين ، والماضى وراءنا ، ولا يزال أمامنا مستقبل طويل وعلينا أن نفكر فى مستقبل ولدنا ، فهو فى هذا الجو المشبع بالأسى والتوتر سينشأ قلقاً تعيساً ، لهذا أشعر بأنه يجب علينا أن نعمل فى الحال عملاً ما لتصحيح هذا الموقف .

لقد قررت أن أذهب إلى البيت الآخر ، واتفقت مع جاك وجين على إعداد ما يلزم لأن أقيم هناك وأحتل مركزى الشرعى مديراً للمزرعة . ولدينا كمية وافرة من الأرض يا إلين تمكننا من تربية ما نشاء من القطعان دون تعرض لقطيع معمل ألبانك . ولك إذا أردت أن تمضى فى عملك كما مضيت حتى الآن .

ثم رفع المجلة وقال :

إنك قد نجحت نجاحاً مدهشاً. وإني لمعجب بروحك القوى وقدرتك على إتمام الأعمال الكبيرة التي استطلعت بها. فأنت امرأة عاملة قديرة وتستطيعين أن تعنى بأمر نفسك، وليست بك من حاجة إلى إحداث أى تغيير فى أسلوب حياتك، وروني ابنك. ولم أترك قط لنفسي العنان فى الشغف به، لأنني أدركت منذ اللحظة الأولى شعورك نحوى. لقد قضينا عدة أعوام متقاربين تقارباً شديداً من الناحية المعنوية. فلا يتفق مع هذا أن أعجز اليوم عن قراءة أفكارك. وأريد يا إلين أن أشكر لك قبل أن نفترق تلك الرسائل التى لم أكن لأحتمل حياة السجن بدونها، ولقد دأبت على انتظارها كل يوم حتى اليوم الأخير.

انهمرت دموعى لأنى لم أستطع حبسها، وكان من موجبات العزاء أن أعلم أن جون كان ممتعضاً منى أيضاً حتى أنه ليريد الذهاب.

ولكنى شعرت فى كلماته بتيار خفى من الحزن أثر فى نفسى. وقد وقف عن الحديث، ولكنه لم يرفع نظره إلىّ حين جاوبته:

— لقد كانت الغلطة الأولى غلطتك أنت يا جون حين حملتنى على أن أعاهدك بألا أزورك فى السجن. ولو أنى رأيت بالتدريج ما طرأ عليك من تغير لكان من المحتمل أن أحتفظ بحبك حياً فى نفسى، غير أنك مع ذلك على حق فيما تقول، فليس اللوم فيما حدث بواقع على أحدنا.

« إن الغلطة هى غلطة المجتمع فى أن تؤخذ منى شاباً قوياً جميلاً ثم ترد إلى شيخاً مكسور القلب. وإنى ما زلت على استعداد لأن أوجه الأمور خير وجهاتها، ولكن حب المرأة يا جون يسقط حيث يريد هو لا حيث تريد هى. فلا أنا أحبك ولا أنت تحبنى.

فرفع جون رأسه فى حركة سريعة، ولكنه حول نظرته جانباً وقال فى هدوء:

— إذن أنت تقرين اقتراحى وتوافقين على أن أنتقل من هنا، وهذا هو ما توقعته من قبل، وطبيعى أن يقيم رونى معك ولكننى أريد أن أراه فى أغلب الأوقات

فقلت:

— هذا طبيعى ورونى صبى رقيق الحس وفى مقدورك أن تكسب حبه وصداقته فى سهولة. وهو لا يزال أصغر من أن يفهم الأمور على حقيقتها، وإنى أريد منك يا جون أن تحبه، كما أود أن تدرك مبلغ حزنى لما صارت إليه الأمور، وإنى لأخجل من موقفى بعد الذى قاسيته أنت من الآلام، ولكنى أريدك كما كنت يوم أخذوك منى زوجى الصغير الجميل بجسمه القوى الرشيق ونظرته الثابتة وشعره العزيز ... ويديك يا جون ...

« ألا فاغفر لى يا جون ولتبق هنا فلا تتركنا وسأحاول أن أصلح كل شىء ! »

ثم غطيت وجهى بيدى وبكيت

فقال جون:

— أبداً ! فإن بقائى هنا أسوأ من إرسالك إلى السجن لتقضى فيه بقية حياتك. لقد كنت أفكر فى غلطتى حين منعتك من زيارتى فى السجن وانتهيت إلى أن الغرور الوقتى هو الذى حملنى على ذلك ... على أن أولى غلطاتى مع ذلك كانت تركى إياك تقضين لياليك وحيدة مندفعاً وراء هايل كيليون فى حياته الجنونية، ولقد دفعت ثمن ذلك غالياً

يا عزيزتى ، دفعته ندماً وحزناً ، ولكننى الآن أريد أن أعيش ... وإنك لمخطئة إذ تتصورين أننا نستطيع أن نكون سعيدين أو حتى راضيين فى حياتنا معاً فى هذا البيت ، ولقد قررت الانتقال إلى البيت الآخر غداً ، وعندى بعض أشياء أريد أن أرتبها ، وهى ما يحويه الصندوق الذى جاءنى أمس من إدارة السجن ، وأنا من أجل ذلك صاعد إلى الطابق الثانى

والآن أرجو يا إلين ألا تحاولى مرة أخرى إصلاح ما حدث ، وإنك لتعلمين أن لا فائدة فى الندم ، ولنعش من الآن للمستقبل ، لمستقبل ابننا الصغير

حييت جون تحية المساء وتركت الغرفة وقد شعرت الآن بالارتياح بعد أن واجهنا قضيتنا بهذه الصراحة

انتقل جون إلى البيت الآخر ليعيش فيه وعاد كل شىء إلى ما كان عليه قبل عودته من السجن ؛ غير أننى أصبحت أشعر بأن هناك شيئاً ينقصنى . لقد أضعت شيئاً كان يشغل ناحية من حياتى ثم مضى فأنا شاعرة بفقدانه . لقد فقدت زوجى من قبل ، أما الآن فقد انتزعت ذكراه أيضاً من قلبى

وكان رونى يقضى وقتاً طويلاً فى البيت الآخر ، وقد استحكمت الصداقة بينه وبين جون منذ اليوم الأول حين عاد إلىّ يحمل بين ساعديه مجموعة من اللعب المصنوعة من الخشب ، وقال :

— أنظرى يا أمى ... هذه مزرعة كاملة أعطاها لى جون . أنظرى هذه الفتاة الجميلة التى تشتغل بصناعة اللبن

ومد يده باللعبة فى وجهى ، فكانت تمثالاً جميلاً لفتاة عقصت جدائلها كالتاج حول رأسها ، وقد ثنى ذيل ردائها إلى أعلى فهى صورة طبق الأصل لى يوم تركنى جون ذاهباً إلى السجن : هى الفتاة التى كان يحلم بها جون ويعززها فى الخيال

وقلت لابنى :

— أعطنى يا رونى إحدى لعبك فعندك منها كثير

فقال الصبى :

إذن خذى هذه العروس الصغيرة فإن الأولاد لا يلعبون بالعرائس

ثم مضى يقول فى حماسة :

— أنظرى يا أمى إلى هذا الجواد وهذه البقرة والخنازير الصغيرة ، أنظرى إلى ذيولها الجميلة الملفوفة

نظرت ولكننى لم أستطع أن أرى شيئاً لأن الدموع قد ملأت عينى . لقد كان جون يفكر فى ابنه الصغير وهو فى السجن فصنع له هذه اللعب من الخشب !

وقال الطفل :

— إنى أحب جون مثل حبى أبى الذى فى الصورة . وهو أب حزين جداً ولكنه يضحك معى ويروى لى أعجب القصص ، وسيصحبنى غداً فى صيد العصافير التى كان يصطادها وهو صغير . فهو كان صغيراً مثلى وكان يعيش فى المزرعة التى يعيش فيها الآن جاك وجين ، وهو يعرف أشياء عن رعاة البقر وعن الهنود ويعرف كل شىء تقريباً !

ولقد كان الأمر كما قال جون : الطفل يألف حكم الظروف بأسرع مما يألفه الكبار

وفى مرة أخرى عاد رونى من زيارة أبيه وأخبرنى أن جون يعرف كل شىء عن السجن ، فهم هناك يحبسون الرجال بعيدين عن أبنائهم الصغار وبناتهم لأن هؤلاء الرجال أشرار ، وأنا أعرف أن جون لم يكن رجلاً شريراً لأنه

لم يعمل العمل الذي أدخل السجن من أجله ، ويقول جون إنه يحدث أحياناً أن يتعذب الناس بسبب أغلاطهم ، وهذا هو ما يحمل الإنسان على التفكير والحذر من الوقوع فى بعض الأغلاط مثل إيذائك شخصاً تحبه فى سبيل الجرى على هواك

ويعرف جون يا أى كل شىء عن الفحم . يعرف العناصر التى يتولد منها ، كما يعرف طريقة إخراجه من الأرض ، وسيفتح محلاً هناك بجوار التل ويسمح للفقراء أن يحضروا إليه ليأخذوا ما يحتاجون إليه من الفحم لتدفئة أطفالهم الصغار .

وهكذا أطلع جون رونى على السر الذى اجتهدت فى إخفائه عنه . ولقد عرفت كيف حدث ذلك ، فقد سأله رونى السؤال الذى كان يحيره فأجاب عليه جون بالصدق وحدث الطفل كما لو كان يحدث رجلاً رشيداً

لقد شعرت فى أحيان كثيرة أن رونى محتاج إلى صحبة رجل طيب ، لذلك فكرت فى أن أتزوج مرة أخرى تحقيقاً لهذا الغرض ... والآن أرى أن رونى قد أحب جون ، بل هو يحبه أكثر مما يحبنى ولكننى لم أغضب لذلك !

كانت هذه أول سنة لرونى فى المدرسة ، ولقد كنت أتتبع بلهفة حركات تقدمه ، وكان يمر فى طريقه إلى المدرسة ومنها ببيت جين وود ، وكانت جين تأتى به إلى البيت فى أغلب الأحيان ، وكان جون يصحبهما فى بعض الأوقات . ولقد قابلت صداقته لجين دون أن أحس بأقل أثر من الغيرة ، وقد خطر لى — إذا كانت جين تهتم به — أن أطلقه فقد تكون قادرة على إسعاده ، وما من شك فى أنها تصبح زوجة صالحة .

ولم تكن جين أقل منى ابتهاجاً بحياة رونى الجديدة ، فلقد كان التغير الذى أحدثته فيه المدرسة كبيراً . وكانت الفتاة تستوقفه كل ليلة عند عودته لتعطيه فطائر طازجة من الجنزبيل أو الكعك ، وكانت دائماً تخاطبنى بالتليفون إذا هى أبقته عندها وقتاً طويلاً . وكانت تقول فى بعض الأحيان : لقد ذهب رونى مع والده إلى جهة ما وسيحضر إليك بعد قليل

وكنت أشعر بالاطمئنان والرضا حين أعلم أن رونى فى بيت جين

كنت فى هذه الأيام كثيرة المشاغل فقد قبلت أن أتولى كتابة صفحة فى مجلة مصانع الألبان ، عدا الاشتراك فى مسائل أخرى كثيرة ، وكلما كثرت أعمالى قل تفكيرى فى نفسى . ولقد عاد إلى الشعور بالسعادة ، فكنت على الأقل أنعم بالحياة وقد خلت نفسى من كل غل أو حقد أو غيرة

وعاد شهر إبريل وكان الربيع بارداً رطباً وصحبت رونى إلى المدرسة فى صباح أحد الأيام ، وكانت السماء قد أمطرت بعد العشاء مطراً بارداً فاعتزمت أن أذهب هذا المساء بنفسى إلى المدرسة لإحضاره ، ولكن جاءنى رجل لأخذ صور للمجلة . وبلغت الساعة الخامسة قبل أن أتنبه إلى الوقت ، فجزعت لعدم عودة رونى إلى البيت ودققت التليفون لبيت جين وود ولكن لم أتلق رداً لدقائى . وإذ كنت أتأهب للبس معطفى استعداداً للخروج أبصرت بجون يحمل رونى إلى البيت ، وأسرعت إلى الباب وفتحته لحظة وصوله إلى عتبته وصحت .

— ماذا حدث ياجون؟ هل أصيب رونى بسوء؟

فأجاب جون :

— هو مريض فلا تجزعى . لقد مرض

فى المدرسة وجاء إلى بيتنا ماشياً ، ومن هناك حملته إلى هنا .

وبينما هو يتكلم ذهب رونى إلى الصفة فأرقده فوقها ، وكانت حرارة الصبى مرتفعة ولم يكن فى استطاعته أن يرفع رأسه ، وقد قال لى فى صوت خافت :

— لماذا لم تحضرى يا أمى ؟ لقد شعرت بأننى مريض جداً

عندئذ أدركت أننى كنت حتى هذا الوقت أفكر فى نفسى وفى أعمالى أكثر من تفكيرى فى رونى على الرغم من شدة حبى له .

وإذ استوى جون واقفاً بعد أن رتب الوسائد بما يتفق وراحة رونى قال له الصبى :

— ابق هنا يا جون

فأجاب جون :

— سأعود يا رونى ، فهناك شىء آخر لا بد من عمله وسأراك ثانية ياعزيزى .

ثم التفت جون إلى وقال :

— سأنقله إلى فراشه يا إلين ، ولكننى ذاهب الآن لإحضار الطبيب فأعطينى مفاتيح سيارتك .

عرفت حكم الطبيب قبل أن ينطق بكلمة « نيمونيا » فنسيت كل شىء فى الدنيا إلا هذا العالم الصغير الذى يحيط بولدى وهو فى فراشه يكافح الموت .

وبقى جون بجانب رونى الذى لم يسمح له بالذهاب وقضى إلى جانبه أياماً ولياليَ طوالاً لا يفارقه لحظة فى أثناء يقظته ، ولا يبعد عنه إلا قليلاً إذا هو نام .

وكان يعنى بابنه المريض فى لطف وحنان ولكنه لم يكن أقل لطفاً وحناناً مع الزوجة التى جحدته .

ثم جاءت الليلة التى علقت فيها حياة الصغير فى ميزان القدر ، فقد اقتربت الأزمة وجلس الطبيب منحنياً عند نهاية السرير يرقب التنفس ، ووقفت إلى جانب السرير ووقف جون إلى الجانب الآخر

وعند منتصف الليل تلاشى الظل الأغبر عن وجه رونى ولم يبق مكانه إلا شحوب رائق . ثم فتح عينيه يتلمس أحداً حوله وقال همساً :

— جون ؟

فأجابه جون :

— هأنذا ياروني ، هأنذا يا صديق العزيز ...

فرت على الشفتين الصغيرتين ابتسامة ملائكية وقال :

— حدثنى يا جون عن بعض الهنود ورعاة البقر

فقال جون :

— لا شك فى أننى أعرف من أخبارهم أشياء كثيرة رائعة ولكن يجب الآن أن تنام هادئاً فترة طويلة

فأطاع رونى إشارة أبيه وأدار رأسه واستغرق فى النوم

فوقف الدكتور جونستون وقال :

— سيعيش . وكل ما يحتاج إليه الآن هو العناية . ترى هل أعدت مارى شيئاً من القهوة ؟ أظن أنى أشم رائحة قهوة وسأهبط إلى الطابق الأول لأرى

رفعت رأسى فرأيت جون ينظر إلىّ بعينين ملؤهما الحب ، فقلت همساً :

— جون ، جون ، إنى أريدك ، أريدك كما أنت

فدار جون حول السرير قادماً نحوى وقابلته فى منتصف الطريق ، وإذا أنا بين يديه يضمنى من جديد بعد هذه السنوات الطوال ، وهو يقول :

— إنى أحبك يا إلين ، ولم يقف قلبى قط عن

النفس بحبك ؟ ولكنني تركتك تعتقدين أن الحياة بدونك كانت مستطاعة ميسورة ، ولم أكن أثق بضبط نفسي إذا نظرت إليك . وكنت أخشى أن تدركي أنني أحبك ، والآن ستعود إلينا السعادة يا عزيزتي .

فأجبت :

— جون ، إني أحبك حباً صادقاً آخر الأمر

فقال جون في رقة ولطف :

— ترى هل يفرح صبينا الصغير بهذا ؟

لم أجب على هذا السؤال لأن الطبيب عاد في هذه اللحظة إلى الغرفة وقد فاجأنا بقوله :

— خذ زوجتك فأرقدها في فراشها

ولما نظر إلى وجهي قال :

— لقد تعبت كثيراً ولكنها كانت تتجلد فلا تشكو

ثم مضى يقول :

— إنكما لا تدركان مبلغ سروري بشفاء طفلكما . وستصبح حياتكم جميعاً سعيدة رائعة بعد الآن . وأنت أيضاً يا جون اذهب واسترح وسأبقى أنا هنا فترة من الزمن

قضيت أنا وجون ساعتنا الأولى معاً محاولين أن نجمع فيها كل ما فقدنا من السعادة طوال هذه السنوات المرة . وإن هناك من التجارب ما لا تستطيع الكلمات أن تصفه ، إنما يستطيع أن يقدرها من يمر بها فيعرف قيمة الحياة بعدها

عبد الحميد حمدي

سيدتي
لا تخشى على مجوهراتك

سيدي
لا تخشى على مستنداتك

اودعوها

خزائن بنك مصر الحديدية

فهي في الحفظ والامان

بنك مصر يؤجر لكم خزائنه الحديدية القوية ويرعاها بعين ساهرة